والعلاّمة رفض هذا القول مبيّناً أنّ هذا لا يكفي لبيان ثبوت العلم بالأشياء قبل الإيجاد وبعده[١].

٤ - ما نسب لتاليس - طاليس - الملطيّ من أنه تعالى يعلم العقل الأول بحضوره عنده وما دونه من سائر الأشياء يعلمها بارتسام صورها في العقل الأول. ردّ العلامة الطباطبائي هذا القول لأنه يلزم منه خلوّ الذات المتعالية عن الكمال، ولأنه قد قرّر أنّ العقول المجردة لا علم ارتسامياً حصولياً لها[٢].

٥ - قول المعتزلة وهو أنّ للماهيّات ثبوتاً عينيّاً في العدم، وهو الذي تعلق به علمه تعالى قبل الإيجاد. وهذا الرأي باطل عند العلامة الطباطبائي لأنه لا ثبوت للمعدومات لديه[٣].

٦ - قول الفارابي وابن سينا وهو أنّ له تعالى علماً حضوريّاً بذاته المتعالية، وعلماً تفصيليّاً حصوليّاً بالأشياء قبل إيجادها بحضور ماهيّتها على النظام الموجود في الخارج لذاته تعالى، لا على وجه الدخول بعينية أو جزئيّة، بل على نحو قيامها بالثبوت الذّهني على وجه الكلية بمعنى عدم تغير العلم بتغير المعلوم، فهو علم عنائي يستتبع فيه حصول المعلوم علماً حصوله عيناً.

وقد رفض العلامة الطباطبائي هذا القول للزومه نقص كمال وثبوت العلم الحصوليّ فيما هو مجرّد ذاتاً وفعلاً، ويلزم فيه وجود ذهني غير عيني يقاس عليه، أي وجود آخر عيناً للماهيّة قبل وجودها الخاص[٤].

---

(١) م.ن، ص٢١٢.
(٢) م.ن، ص٢١١.
(٣) نهاية الحكمة، م.م، ص٣٥٥.
(٤) م.ن، ص٣٥٤.

٧ - قول شيخ الإشراق وتبعه الطوسي والشّيرازي وغيرهم، وهو أنّ الأشياء أعمّ من المجرّدات والماديات، حاضرة بوجودها العيني له تعالى غير غائبة ولا محجوبة عنه وهو علمه التفصيلي بعد الإيجاد، فله تعالى علم إجمالي بها يتبع علمه بذاته.

وقد رفض العلاّمة الطباطبائي هذا الأمر أيضاً، لأنه يلزم منه خلو الذات المتعالية عن كمال كما أنه أيضاً المادية لا تجامع الحضور[١].

٨ - قول الصوفيّة: وهو أنّ للماهيّات ثبوتاً علميّاً يتبع الأسماء والصفات هو الذي تعلق به علمه تعالى قبل الإيجاد.

وهذا القول مرفوض عند العلامة الطباطبائي لأنه يلزم أن يكون ثبوت مفروض للماهيّات قبل ثبوتها الخاص، وهو باطل لأصالة الوجود[٢].

٩ - قول بعض الحكماء ومنهم السّبزواري، حيث ذهب إلى أنّ لذاته تعالى علم تفصيلي بالمعلول الأوّل وإجماليّ بما عداه من الممكنات، وهكذا كلّ علة بعد الحق تعالى علم تفصيلي وصورة علميّة له تعالى بالمعلول الأوّل الذي يلي تلك العلّة بلا واسطة وإجمالي بما له واسطة.

رفض العلاّمة هذا القول للزومه خلوّ الذات المتعالية عن كمال العلم بما دون المعلول الأول[٣].

١٠ - وهو قول أكثر المتأخرين، وهو أنّ له تعالى علماً تفصيليّاً

(١) بداية الحكمة، م.م، ص٢١١.
(٢) م.ن، ص٢١٠ - ٢١١.
(٣) م.ن، ص٢١٢.

بذاته، وهو علم إجماليّ بالأشياء قبل الإيجاد، أمّا علمه التفصيلي بالأشياء فيكون بعد وجودها لأنّ العلم تابع للمعلوم؛ ولا معلوم قبل الوجود العيني.

وهذا القول ردّه العلامة الطباطبائي لأنه يلزم منه إثبات العلم الحصولي في الوجود المجرد المحض[١].

وبناءً على كلّ ما تقدّم، يخلص العلامة الطباطبائي إلى القول: أنّ الحق سبحانه يعلم من غير واسطة من قبيل الحواس والقوى الإدراكية، فالحقّ بذاته، وكلّ الأشياء تعرف بواسطة الحق[٢].

قدرته تعالى (صفة القدرة):

وهي من الصفات الذاتية الكمالية التي أجمع عليها الإلهيون، وللقدرة تفسيران عند الفلاسفة والمتكلمين، **وهما**:

١ - القدرة بمعنى صحّة الفعل والترك، فالقادر هو الذي يصحّ أن يفعل ويصحّ أن يترك.

٢ - وفسّرت أيضاً بأنها الفعل عند المشيئة والترك عند عدمها، فالقادر هو الذي إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل وإن لم يشأ لم يترك[٣].

والقدرة من الكمالات الوجوديّة التي تختصّ بمورد الفعل فقط، وهي تختصّ بمبدئيّة الفاعل الحيّ ويشترط فيها كون الفاعل عالماً بفعله علماً مؤثّراً في صدور فعله عنه، ولما كان فعل كلّ نوع من الفواعل إنما

(١) م.ن، ص٢١٢. انظر أيضاً: شرح المنظومة، م.م، ج٣، ص٥٨١.
(٢) م.ن، ص٢١٢ - ٢١٣.
(٣) بداية الحكمة، م.م، ص٢١٣ - ٢١٦.

يمتاز بأنه كمال مسانخ لذلك النوع، فالفاعل العلميّ إنما يفعل فعله إذا علم بما هو كمال وخيرٌ له بما أنّه فاعلٌ لذلك الفعل فيختاره، ويتحقّق الفعل عبر مقدمات، وهي: العلم بالفعل بأنّه خير فيحصل على أثره الشّوق من الفاعل للفعل لأنّ الخير محبوب، فيصبح الفاعل مريداً للفعل فيحرّك العضلات بواسطة القوة العاملة المنبثقة فيها فيحصل الفعل.

والحاصل، أنّ حقيقة القدرة هي المبدئيّة للفعل الملازمة للعلم والإختيار، وهي متحقّقة في الواجب تعالى على ما يليق بساحة قدسه، فعلمه ليس أمراً زائداً على ذاته كما أنّ اختياره ليس بحدوث إرادة في ذاته سبحانه، لأنّها ماهية ممكنة وهي من الأمور الكائنة الفاسدة، فاتّصافه بها يستلزم تغيير الموصوف وهو محال.

فالإرادة التي ينفيها الحكماء هي الكيفيّة الحادثة الحالة في ذاته، والأولى أن ترجع الإرادة إلى معنى الحبّ لا العلم بالنّظام الأصلح، وتستعمل الإرادة في مورد الواجب تعالى كصفة فعليّة منتزعة عن مقام الفعل ولا تنافي في استعمالها كصفة ذاتيّة، هذه خلاصة آراء العلامة الطباطبائي في هذا المطلب[١].

حياته تعالى أو (صفة الحياة):

وهي من الصفات الثبوتيّة العينيّة التي تقتضي الحسّ والشعور، وهي - الحياة - على ما يتحصل من التأمل في تعريفات القوم أنها معنى يلازم العلم والقدرة، ولهذا ربما يظنّ أنها مجموع العلم والقدرة

(١) نهاية الحكمة، م.م، ص٣٦٠ - ٣٦٤.

أو معنى ينتزع منهما، وليس كذلك لجواز الإنفكاك بينهما وبين كلّ واحد من العلم والقدرة في الذّهن[١].

قال صدر المتألهين: «واعلم أنّ حياة كلّ حي إنما هي نحو وجوده، إذ الحياة هي كون الشيء بحيث يصدر عنه الأفعال الصادرة عن الأحياء من آثار العلم والقدرة. لكنّ من الأشياء الحيّة ما يجب فيه أن يسبق هذا الكون كون آخر، ومنها ما ليس يجب فيه أن يسبقه كون آخر، فالقسم الأول كالأجسام الحيّة، فإنّ كونها ذات حياة إنما يطرأ عليها بعد كون آخر له يسبق هذا الكون الحيواني.. وأمّا القسم الثاني فهو فيما يخرج عن الأجسام، فإنّ ما ليس بجسم لا يمتنع فيه أن يكون وجوده بعينه هو كونه بالصفة المذكورة.. وواجب الوجود أولى بأن تكون حياته عين وجوده لكونه بسيط الحقيقة»[٢].

والعلامة الطباطبائي تبع ملا صدرا، فقال: في تعريف الحياة: «كون الشيء بحيث يدرك ويعقل»[٣].

واستدلّ على الحياة بأنها كمال وقد وهبها الواجب تعالى لمخلوقاته وفاقد الشيء لا يعطيه، فالواجب تعالى حيّ وحياته كونه يعلم ويقدر[٤].

وبتعبيرٍ آخر: «وحال ثبوت الحياة أيضاً - التي هي مجموع العلم والقدرة أو الحقيقة الملزومة للعلم والقدرة - هي بالنسبة للحقّ، كمال القدرة والعلم»[٥].

---

(١) شرح المنظومة، م.م، ج٣، ص٦٣٠ - ٦٣٢.
(٢) الأسفار، م.م، ج٦، ص٤١٧ - ٤١٨.
(٣) نهاية الحكمة، م.م، ص٣٧١.
(٤) م.ن، ص٣٧١. وبداية الحكمة، م.م، ص٢١٦.
(٥) الشيعة في الإسلام، م.م، ص١٩٨..

كلامه تعالى أو (صفة الكلام):

«صفة الكلام من الصّفات الثبوتيّة الكمالية على أكثر الأقوال، إلا أنّ هناك من ذهب إلى القول بأنها من الصفات الفعليّة[١]، وكيف كان، فالتكلّم عبارة عن: إلقاء لفظ دال على معنى بالدلالة الوضعية الإعتبارية لإعلام المخاطب بما في ضمير المتكلم، وذلك اللفظ يسمى كلاماً.

وقوام هذا المعنى هو الوضع والإعتبار، ويمكن أن يراد من الكلام معنى أوسع وأشمل وأعمّ؛ وهو مطلق الإعلام سواء كان بلفظ أو بغير لفظ وسواء كان بدلالة وضعية أم بغيرها.

كما أطلقت الكلمة في القرآن الكريم على المسيح بن مريم عليه السلام، وهذه إشارة إلى المعنى للكلام من أن خلقه تعالى الخارق للعادة من أفضل وأحسن وجوه إعلام الخلائق بصفات الخالق.

ومنهم من وسّع مفهوم الكلام بحيث يشمل صفات الله الذاتية واعتباره متكلماً في مقام ذاته، واعتبار الكلام صفة ذاتيّة له فليس عليه دليل؛ هذا ما ذكره العلامة الطباطبائي من معاني الكلام والتكلم»[٢].

ومن هنا، يتضح موقفه أيضاً في مسألة خلق القرآن التي كانت أساساً للبحث في صفة التكلم، والتي عدها العلامة من أقدم الأبحاث العلمية التي شغلت أفكار الباحثين من المسلمين بحيث سمّي علم الكلام بها[٣].

---

(١) الإلهيات، م.م، ج١، ص١٨٩، حيث عرض السّبحاني لمجمل آراء القوم في هذه المسألة.

(٢) بداية الحكمة، م.م، ص٢١٧ - ٢١٨، وانظر: الميزان في تفسير القرآن، م.م، ج١٤، ص٢٤٧ - ٢٥٠.

(٣) الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج٢، ص٣٢٦.

وذهب العلامة الطباطبائي إلى القول: «إنّ البحث عن قدم القرآن وحدوثه بما أنه كلام الله مما لا جدوى فيه، فإنّ القائل بالقدم إن أراد به أن المقروء من الآيات بما أنها أصوات مؤلفة دالة على معانيها قديم غير مسبوق بعدم فهو مكابر، وإن أراد به أنه في علمه تعالى أو بعبارة أخرى، علمه تعالى بكتابه قديم فلا موجب لإضافة علمه إليه ثم الحكم بقدمه، بل علمه بكلّ شيء قديم بقدم ذاته لكون المراد بهذا العلم هو العلم الذاتي»[١].

ب - الوحي أو (الشعور المرموز):

بيّن العلامة الطباطبائي أنّ المعنى اللغوي لكلمة الوحي هي:

«الإشارة السريعة، وهذا ما ذكره أيضاً الراغب الأصفهاني واعتبره مفعول مطلق»[٢].

وقال: «إن ملخص ما نستفيده من الآيات الكريمة أنها تعتبر القرآن الكريم كتاباً سماويّاً ألقيَ إلى الرسول من طريق الوحي، والوحي هو كلام سماويّ (غير ماديّ) ليس للحواس الظاهريّة والعقل أن تصل إليه، بل ربّما يوجد في بعض من يختاره الله تعالى ما يدرك بواسطة قوى ربانية الأوامر الإلهية والدستور الغيبي (غير المحسوس بالعقل والحواس الأخرى)، وهذه الحالة هي من حالات النبوة وبها يتلقى النبيّ الشريعة الإلهية، وهذا الأمر يمكن فهمه بشكل أوضح عند

(١) الميزان في تفسير القرآن، م.م، ج١٤، ص٢٥.
(٢) م.ن، ج١٨، ص٧٤.

دراسة موضوع (الهداية العامة وهداية الإنسان)»[١].

ويقول: «إنّ القانون الذي يضمن السعادة للبشرية، لا يدركه العقل، وبمقتضى نظرية الهداية العامة، التي ترى ضرورة هذا الإدراك في النوع البشري، لا بدّ من وجود جهاز آخر في النوع الإنساني يدرك ذلك، كي يرشده إلى الواجبات الواقعية للحياة، وتكون في متناول يد الجميع، وهذا الشعور والإدراك هو غير العقل والحسّ، إنه ما يسمى بـ (الوحي) ومن الطبيعي أن وجود مثل هذه القوة في البشر لا يتحتّم أن يكون في جميع أفراد البشر، كما هو في القوة المودعة في الإنسان للتناسل، في حين أنّ إدراك لذة الزواج، والتأهب له، يتحقّق في الأفراد عند بلوغهم، وشعور (الوحي) الذي لا يظهر لدى الأفراد، هو شعور مرموز، كما هو الحال في إدراك وشعور اللّذة في الزواج عند من لم يصل إلى سنّ البلوغ، فيبقى هذا الإدراك غير معروف لديه.

والله تعالى يشير في خطابه عن (الوحي) بالنسبة إلى الشريعة وعجز العقل، بقوله: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾[٢]، و﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾[٣].

وإنّ ظهور الأنبياء يؤيد نظرية (الوحي) الذي سبق ذكره. إنّ أنبياء الله تعالى كانوا ممّن ادعوا (الوحي) والنبوّة، وفي ادعائهم هذا أقاموا الحجج والبراهين، وبلغوا الناس ما تحتويه شريعة الله سبحانه، ألا وهو

(١) الطباطبائي، محمد حسين، القرآن في الإسلام، تعريب أحمد الحسيني، لا.د.ن، لا.ت، لا.م، ص١٢٨ - ١٢٩.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٦٣.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٦٥.

القانون الذي يمنحهم السعادة، وجعلوها في متناول أيدي الجميع، ولما كان الأنبياء يمتازون بالوحي والنبوّة، فعند ظهورهم في كلّ زمان كانوا قلة، فجعل الله هداية الناس على عاتق هؤلاء، بما أمروا من دعوة وإبلاغ، وما ذلك إلا لتعمّ وتتّسع وتكتمل تلك الدّعوة»(١).

ومن خلال تفسيره للآية الواحدة والخمسين من سورة الشورى، قسّم العلامة الطباطبائي معنى الوحي إلى ثلاثة أقسام، واستدلّ على ذلك بمجموعة أدلة وحجج ساهمت في تأكيد دعواه بهذا الخصوص، ومما جاء في هذا التفسير والإستدلال: يقول الله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾(٢).

وعلّق الطباطبائي على هذه الآية بالقول: «تتضمن الآية آخر ما يفيده سبحانه في تعريف الوحي في هذه السورة، وهو تقسيمه إلى ثلاثة أقسام: وحياً، أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء، ثم يذكر أنه يوحي إليه - أي للنبي ﷺ - ما يوحي، على هذه الوتيرة وأنّ ما أوحي إليه منه تعالى لم يكن النبي ﷺ يعلم ذلك من نفسه، بل هو نور يهدي به الله من يشاء من عباده ويهدي به النبي ﷺ بإذنه، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ إلخ...، وإطلاق الكلام على كلامه تعالى والتكليم على فعله الخاص، سواء كان إطلاقاً حقيقيّاً أو مجازيّاً واقع في كلامه تعالى قال: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى

(١) الشيعة في الإسلام، م.م، ص١٣٢ - ١٣٣.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٥١.

ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾[١]، وقال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾[٢]، ومن مصاديق كلامه ما يتلقاه الأنبياء عليهم السلام منه تعالى بالوحي، وعلى هذا لا موجب لعد الإستثناء في قوله: ﴿إِلَّا وَحۡيًا﴾ منقطعاً بل الوحي والقسمان المذكوران بعده من تكليمه للبشر، سواء كان إطلاق التكليم عليها إطلاقاً حقيقيّاً أو مجازيّاً، فكل واحد من الوحي وما كان من وراء حجاب وما كان بإرسال رسول نوع من تكليمه للبشر.

فقوله: ﴿إِلَّا وَحۡيًا﴾، والوحي الإشارة السريعة على ما ذكره الراغب (مفعول مطلق نوعي) وكذا المعطوفان عليه في معنى المصدر النوعي، والمعنى: ما كان لبشر أن يكلمه الله نوعاً من أنواع التكليم إلا هذه الأنواع الثلاثة أن يوحى وحياً، أو يكون من وراء حجاب، أو أن يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء.

ثم إن ظاهر الترديد في الآية (بأو) هو التقسيم على مغايرة بين الأقسام، وقد قيّد القسمان الأخيران بقيدٍ كالحجاب، والرسول الذي يوحي إلى النبي ولم يقيّد القسم الأول بشيء، فظاهر المقابلة يفيد أنّ المراد به التكليم الخفيّ من دون أن يتوسط واسطة بينه تعالى وبين النبي أصلاً، وأمّا القسمان الآخران ففيهما قيد زائد وهو الحجاب أو الرسول الموحي، وكلّ منهما واسطة غير أنّ الفارق أنّ الواسطة الذي هو الرسول يوحي إلى النبي بنفسه، والحجاب واسطة ليس بموحٍ وإنّما الوحي من ورائه.

فتحصّل أن القسم الثالث ﴿أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ﴾

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٤٤.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٦٤.

هي بتوسّط الرسول الذي هو ملك الوحي، فيوحي ذلك الملك بإذن الله ما يشاء الله سبحانه، قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[١]، وقال: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[٢]، والموحي مع ذلك هو الله سبحانه، كما قال: ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾[٣]، وهذه هي الأقسام الثلاث للوحي»[٤].

أمّا حول تفسير البعض، بأنّ الرسول المذكور في متن الآية هو النبي ﷺ حيث يبلغ الوحي عن السماء، فيقول العلامة الطباطبائي: «وأما قول بعضهم: إنّ المراد بالرسول في قوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ هو النبيّ يبلغ الناس الوحي، فلا يلائمه قوله: (يوحي) إذ لا يطلق الوحي على تبليغ النبيّ.

وأنّ القسم الثاني ﴿أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ وهي مع واسطة هو الحجاب غير أن الواسطة لا يوحي كما في القسم الثالث، وإنما يبتدئ الوحي مما وراءه لمكان من، وليس وراء بمعنى خلف وإنما هو الخارج عن الشيء المحيط به، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾[٥]، وهذا كتكليم موسى عليه السلام في الطور، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾[٦]، ومن هذا الباب ما أوحي إلى الأنبياء في مناماتهم.

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: ١٩٣ - ١٩٤.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٩٧.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٣.
(٤) الميزان في تفسير القرآن، م.م، ج١٨، ص٧٣ - ٧٤.
(٥) سورة البروج، الآية: ٢٠.
(٦) سورة القصص، الآية: ٣٠.

وأنّ القسم الأول تكليم إلهي للنبي من غير واسطة بينه وبين ربّه من رسول أو أي حجاب مفروض، ولما كان للوحي في جميع هذه الأقسام نسبة إليه تعالى على اختلافها، صحّ إسناد مطلق الوحي إليه بأي قسم من الأقسام تحقق، وبهذه أسند جميع الوحي إليه في كلامه، كما قال: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾[١]، وقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ﴾[٢].

وختم العلامة الطباطبائي بقوله: هذا ما يعطيه التدبّر في الآية الكريمة، وللمفسّرين فيها أبحاث طويلة الذيل ومشاجرات أضربنا عن الإشتغال بها»[٣].

وحول هذا الأمر أيضاً وفي كتابه (الشيعة)، قال العلامة الطباطبائي: «إنّ ظهور الأنبياء يؤيّد نظرية (الوحي) الذي سبق ذكره، إن أنبياء الله تعالى كانوا ممن ادعوا (الوحي) والنبوة، وفي ادعائهم هذا أقاموا الحجج والبراهين، وبلغوا الناس ما تحتويه شريعة الله سبحانه، ألا وهو القانون الذي يمنحهم السعادة وجعلوها في متناول أيدي الجميع، ولما كان الأنبياء يمتازون بـ (الوحي) والنبوة، فعند ظهورهم في كلّ زمان كانوا قلّة، فجعل الله هداية الناس على عاتق هؤلاء، بما أمروا من دعوة وإبلاغ، وما ذلك إلا لتعمّ وتكتمل تلك الدعوة، ومن هنا يتضح وجوب عصمة الأنبياء، فهم مصونون من الخطأ في تلقي الوحي من جانب الله تعالى، وفي حفظه، وإيصاله إلى الناس، فإنهم

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٣.
(٢) سورة النحل، الآية: ٤٣.
(٣) تفسير الميزان، م.م، ج١٨، ص٧٥.

بعيدون كلّ البعد عن المعصية والخطأ، لأن تلقي الوحي - كما ذكر - وحفظه وإبلاغه، يشتمل على الأركان الثلاثة للهداية التكوينية، ولا معنى أن يكون هناك خطأ في التكوين. فضلاً عن أنّ المعصية والتخلف عن أداء الدعوة والإبلاغ، عمل يخالف الدعوة، ويوجب سلب ثقة الناس، واطمئنانهم، بصحة الدعوة وصدقها، ونتيجةً لذلك، ينتفي الغرض والهدف الأساسي للدعوة.

والخالق جلّ شأنه يشير إلى عصمة الأنبياء في كتابه المجيد بقوله: ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1]»[2].

وبناءً على ما تقدم، فإن معارف ومدركات البشر العادية والمتعارفة، التي يحصل عليها نتيجة التعاون بين الحس والعقل، وإن كان لها دورها الفاعل في توفير ما يحتاج إليه في حياته، ولكنها لا تكفي في التعرّف على طريق الكمال والسعادة الحقيقية، في جميع المجالات الفردية والإجتماعية والمادية والمعنوية والدنيوية والأخروية، وإذا لم يوجد طريق آخر لسدّ النقص فلن يتحقق الهدف الإلهي من خلق الإنسان.

وبملاحظة ذلك، نتوصل إلى نتيجة مفادها: «إن الحكمة الإلهية تقتضي وضع طريق آخر للبشر - غير الحسّ والعقل - من أجل التعرف على مسار الكمال في كلّ المجالات، حتى يستطيع البشر الإستفادة منه مباشرة أو بواسطة فرد أو أفراد، وهذا الطريق هو الوحي الذي وضعه الله للأنبياء، ليستفيدوا هم منه بصورة مباشرة، وليستفيد منه الآخرون

(١) سورة الأنعام، الآية: ٨٧.
(٢) الشيعة في الإسلام، م.م، ص١٣٣ - ١٣٤.

عن طريق الأنبياء، وليتعلموا منه كلّ ما يحتاجون إليه، من أجل الوصول إلى السعادة والكمال النهائي»[١].

وهذا ما انتهى إليه العلامة الطباطبائي في بحثه حول مصادر المعرفة حيث عدّ الوحي أو الإرشاد المولوي أحد أهم طرق مصادر المعرفة الثلاث، إلى جانب الفلسفة والتي تمثل الطريق العقلي، والعلم الذي يمثل الطريق التجريبي الحسي»[٢].

ج - نظرته إلى النبوّة:

عالج العلامة الطباطبائي هذه المسألة من عدة جهات متعدّدة ليصل إلى تأكيد صحة وحقيقة هذا الأمر، وذلك من خلال استعراض العديد من الأدلة والبراهين والحجج العلمية والعقلية والكلاميّة والرّوائيّة، وانطلق في بحثه هذا من زاوية تبيان الفرق بين النبي والرسول، فقال: «عبّر الله سبحانه عن الرجال المبعوثين بالوحي بتعبيرين مختلفيين وهما: الرسول والنبي، قال تعالى: ﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ﴾[٤]، ومعنى الرسول حامل الرسالة، ومعنى النبي حامل النبأ، فللرسول شرف الوساطة بين الله سبحانه وبين خلقه وللنبي شرف العلم بالله وبما عنده.

(١) مصباح اليزدي، محمد تقي، دروس في العقيدة الإسلامية، دار الحق، بيروت، ت١٩٩، ط٢، ص٢١٠.
(٢) أسس الفلسفة والمذهب الواقعي، م.م، ج١، ص٣٣٠ - ٣٣١.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٦٩.
(٤) سورة المائدة، الآية: ١٠٩.

وقد قيل إن الفرق بين الرسول والنبي بالعموم والخصوص المطلق، فالرسول هو الذي يبعث فيؤمر بالتبليغ ويحمل الرّسالة، والنبي يبعث سواء أمر بالتبليغ أم لم يؤمر.

لكن هذا الفرق لا يؤيده كلامه تعالى، كقوله سبحانه: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾[1]، والآية في مقام المدح والتعظيم ولا يناسب هذا المقام التدرج من الخاص إلى العام كما لا يخفى.

وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيّٖ﴾[2]، حيث جمع في الكلام بين الرسول والنبي ثم جعل كلا منهما مرسلاً لكن قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾[3]، وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾[4]، إلى غير ذلك من الآيات التي يعطي ظاهرها أنّ كل مبعوث من الله بالإرسال إلى الناس نبي ولا ينافي ذلك ما مرّ من قوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾، فإنّ اللفظين قصد بهما معناهما من غير أن يصيرا اسمين مهجوري المعنى، فالمعنى وكان رسولاً خبيراً بآيات الله ومعارفه، وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيّٖ﴾[5]، لإمكان أن يقال: إنّ النبي والرسول كليهما مرسلان إلى الناس، غير أنّ النبي بعث لينبئ الناس بما عنده من نبأ الغيب لكونه خبيراً بما عنده، والرسول هو المرسل برسالة

(١) سورة مريم، الآية: ٥١.
(٢) سورة الحج، الآية: ٥٢.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٦٩.
(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٤٠.
(٥) سورة الحج، الآية: ٥٢.

خاصة زائدة على أصل نبأ النبوة، كما يشعر به أمثال قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[٢]، وعلى هذا، فالنبي هو الذي يبين للناس صلاح معاشهم ومعادهم من أصول الدين وفروعه على ما اقتضته عناية الله من هداية الناس إلى سعادتهم، والرسول هو الحامل لرسالة خاصة مشتملة على إتمام حجة يستتبع مخالفته عذاباً أو نحو ذلك، قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[٣]، ولا يظهر من كلامه تعالى في الفرق بينهما أزيد مما يفيده لفظهما بحسب المفهوم، ولازمه هو الذي أشرنا إليه من أن للرسول شرف الوساطة بين الله وبين عباده، وللنبي شرف العلم بالله وبما عنده.

ثمّ إنّ القرآن صريح في أنّ الأنبياء كثيرون وأن الله سبحانه لم يقصص الجميع في كتابه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾[٤]، إلى غير ذلك، والذين قصّهم الله تعالى في كتابه بالإسم بضعة وعشرون نبياً، وهم: آدم، ونوح، وإدريس، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل، واليسع، وذو الكفل، وإلياس، ويونس، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وشعيب، وموسى، وهارون، وداود، وسليمان، وأيوب، وزكريا، ويحيى، وإسماعيل، وعيسى، ومحمد ﷺ.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٤٧.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٥. وانظر أيضاً حول هذا المعنى ما قاله يوسف زيدان في كتابه اللاهوت العربي، الصادر عن دار الشروق، مصر، ط٢، ص٧٩ - ٨٣.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٦٥.

(٤) سورة غافر، الآية: ٧٨.

وهناك عدة لم يذكروا بأسمائهم بل بالتوصيف والكناية، قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾[١]، وقال تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَسْبَاطِ﴾[٤]، وهناك من لا يتضح كونه نبيّاً كفتى موسى في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾[٥]، ومثل ذي القرنين، وعمران أبي مريم، وعزير من المصرّح بأسمائهم.

وبالجملة، لم يذكر القرآن لهم عدد يقفون عنده، والذي يشتمل من الروايات على بيان عددهم آحاد مختلفة المتون، أشهرها رواية أبي ذر عن النبي ﷺ: إن الأنبياء مئة وأربعة وعشرون ألف نبي، والمرسلون منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر نبيّاً.

وإن سادات الأنبياء هم أولوا العزم منهم، وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد ﷺ، قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[٦]، ومعنى العزم فيهم الثبات على العهد الأول المأخوذ عنهم وعدم نسيانه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾[٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾[٨].

وكلّ واحد من هؤلاء الخمسة صاحب شرع وكتاب، قال تعالى:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٦.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٩.
(٣) سورة يس، الآية: ١٤.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٣٦.
(٥) سورة الكهف، الآية: ٦٠.
(٦) سورة الأحقاف، الآية: ٣٥.
(٧) سورة الأحزاب، الآية: ٧.
(٨) سورة طه، الآية: ١١٥.

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٨ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ﴾[٣]، إلى أن قال: ﴿وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ﴾[٤]، إلى أن قال: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ﴾[٥].

ومن لوازم النبوة الوحي، وهو نوع تكليم إلهي تتوقف عليه النبوّة»[٦].

ومن زاوية المعالجة الروائية قال العلامة الطباطبائي: «في كتاب التوحيد عن هشام بن الحكم قال: سأل الزنديق الذي أتى أبا عبد الله[٧] فقال: من أين أثبت أنبياء ورسلاً؟ قال أبو عبد الله عليه السلام: إنا لما أثبتنا أن لنا خالقاً صانِعاً متعالياً عنا وعن جميع ما خلق، وكان ذلك الصانع

(١) سورة الشورى، الآية: ١٣.
(٢) سورة الأعلى، الآيتان: ١٨، ١٩.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٤.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٤٦.
(٥) سورة المائدة، الآية: ٤٨.
(٦) تفسير الميزان، م.م، ج٢، ص١٤٢ - ١٤٥.
(٧) أبو عبد الله هو الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، سادس أئمة أهل البيت عليهم السلام، وهشام بن الحكم هو أحد أصحابه، أما لفظة الزنديق فتطلق بلسان الروايات على كلّ ملحد بالله سبحانه.

حكيماً لم يجز أن يشاهده خلقه، ولا يلامسوه، ولا يباشرهم ولا يباشروه، ويحاجهم ويحاجّوه، فثبت أنّ له سفراء في خلقه يدلونهم على مصالحهم ومنافعهم، وما فيه بقائهم، وفي تركه فنائهم، فثبت الآمرون الناهون عن الحكيم العليم في خلقه، وثبت عند ذلك أنّ له معبّرين وهم الأنبياء وصفوته من خلقه، حكماء، ومؤدبون بالحكمة، مبعوثين بها، غير مشاركين للناس في أحوالهم، على مشاركتهم لهم في الخلق والتركيب، مؤيدين من عند الحكيم العليم بالحكمة والدلائل والبراهين والشواهد، من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص فلا يخلو أرض الله من حجة يكون معه علم يدل على صدق مقال الرسول ووجوب عدالته.

علّق العلامة الطباطبائي على هذه الرواية بالقول: والحديث كما ترى مشتمل على حجج ثلاث في مسائل ثلاث من النبوّة:

الأول: الحجّة على النبوّة العامة.

الثاني: الحجة على لزوم تأييد النبي بالمعجزة.

الثالث: مسألة عدم خلو الأرض عن الحجة»[1].

وأضاف العلامة: «وفي الكافي، عن الإمام الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ قال: النبي الذي يرى في منامه، ويسمع الصوت، ولا يعاين الملك، والرسول الذي يسمع الصّوت ولا يرى في المنام ويعاين.

وعلّق الطباطبائي على هذه الرواية أيضاً بالقول: المقصود أنّ النبوّة والرسالة مقامان، خاصة أحدهما الرؤيا وخاصة الآخر مشاهدة ملك

(١) تفسير الميزان، م.م، ج٢، ص١٤٦.

الوحي، وربما اجتمع المقامان في واحد فاجتمعت الخاصتان، وربما كانت نبوة من غير رسالة، فتكون الرسالة أخصّ من النبوّة مصداقاً لا مفهوماً.

فقد تبيّن أنّ كل رسول نبي ولا عكس، وبذلك يظهر الجواب عما اعترضه بعضهم على دلالة قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[1]، إنه إنما يدلّ على ختم النبوّة دون ختم الرسالة مستدلا بهذه الرواية ونظائرها.

والجواب: أنّ النبوّة أعمّ مصداقاً من الرسالة، وارتفاع الأعم يستلزم ارتفاع الأخص، ولا دلالة في الروايات على العموم من وجه بين الرسالة والنبوة، بل الروايات صريحة في العموم المطلق»[2].

ومن زاوية المعالجة الفلسفية، قال الطباطبائي: «مسألة النبوّة العامة بالنظر إلى كون النبوّة نحو تبليغ للأحكام وقوانين مجعولة مشرّعة وهي أمور اعتباريّة غير حقيقيّة، وإن كانت مسألة كلاميّة غير فلسفيّة، فإنّ البحث الفلسفي إنما ينال الأشياء من حيث وجوداتها الخارجية وحقائقها العينيّة، ولا يتناول الأمور المجعولة الإعتبارية.

لكنها بالنظر إلى جهة أخرى، مسألة فلسفية وبحث حقيقي، وذلك أن المواد الدينيّة من المعارف الأصلية والأحكام الخلقية والعملية لها ارتباط بالنفس الإنسانية، من جهة أنها تثبت فيها علوماً راسخة أو أحوالاً تؤدي إلى ملكات راسخة، وهذه العلوم والملكات تكون صوراً للنفس الإنسانيّة تعين طريقها إلى السعادة والشقاوة، والقرب والبعد من

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٤٠.
(٢) تفسير الميزان، م.س، ج٢، ص١٤٧ - ١٤٨.